

### المحاضرة الثالثة

#### أسرة ثيودوسيوس (379-457م)

#### تتناول المحاضرة العناصر التالية:

#### أسرة ثيودوسيوس (379-457م)

- ثيودوسيوس الأول (379-395م)
- أركاديوس وهونوريوس
- ثيودوسيوس الثاني (408-450م)
- مارقيان (450-457م)

#### أسرة ليو (457-518م)

- ليو الأول (457-474م)
- ليو الثاني (474م)
- زينون (474-491م)، تخلصها اغتصاب بازل للعرش (475م)
- أنستاسيوس الأول (491-518م)

كان لمعركة أدنة عام 378م نتائج خطيرة، فقد فتحت الطريق أمام العناصر الجرمانية للتوغل في أوروبا، معلنة عزز الإمبراطورية عن وقف تقدمهم في الجانب الغربي، ولذلك بدأ ثيودوسيوس حكمه بمفاوضة القوط، وتنظيم علاقتهم بالإمبراطورية، وعندما وجد عدم جدوى حثهم على العودة إلى موطنهم الأصلي، أو مغادرة حدود الإمبراطورية، اقترح بقائهم في أراضي الإمبراطورية، وقسمهم إلى قسمين، نزل قسم منهم بالقرب من إيطاليا، وعرفوا بالقوط الشرقيين، وأنزل القسم الآخر على الحدود الغربية، وعرفوا بالقوط الغربيين، ومنحهم ثيودوسيوس الحكم الذاتي، على أن يلتحقوا بنظام الخدمة العسكرية للإمبراطورية، مقابل معونة سنوية كبيرة تقدمها لهم الإمبراطورية، فيشكلوا حائط صد يحمي الإمبراطورية من الإغارات والأخطار الخارجية، فيما عرف بنظام المحالفين، أو المعاهدين، وهو نموذج مبكر لما عرف فيما بعد بنظام الثيمات، وانخرط عدد كبير من جنود القوط في الجيش البيزنطي، واعتمدت عليهم الإمبراطورية كثيراً، واستفادت من خبراتهم الحربية، ولكنهم سرعان ما شكلوا خطراً على الإمبراطورية بعد موت ثيودوسيوس، أما بالنسبة للفرس، فقد عقد معهم معاهدة طويلة الأمد حتى يتفرغ لإصلاح أحوال الإمبراطورية.

أما فيما يتعلق بالجوانب الدينية، فقد كان ثيودوسيوس يعتنق مذهب نيقيا، ولذلك جعله المذهب الرسمي للإمبراطورية، وحرم ما دون ذلك، وعندما استقرت أمور الإمبراطورية الداخلية، دعا لعقد المجمع الديني الثاني، والذي عقد في القسطنطينية عام 381م، الذي اعتمد قرارات مجمع نيقية، وزاد عليها بعض التعاليم، واعتبر الأريوسية هرطقة وخروج على تعاليم المسيحية، وعرفت قرارات مجمع القسطنطينية بأنها المرحلة الأولى من الأورثوذكسية.

وأعقب المجمع بمرسوم ضد الوثنية، حرم فيه تقديم القرابين، وحرق البخور، وسائر الطقوس الوثنية، وكل من يخالف ذلك يعتبر مذنباً في حق الإمبراطورية والإمبراطور، وتحق عليه العقوبة المشددة (سمل)

العينين أو الموت)، وبذلك أندثرت الوثنية بالتدريج، وأصبحت المسيحية على مذهب نيقية، وتبعاً لقرارات مجمع القسطنطينية، هي ديانة الدولة الرسمية، وما عداها هرطقة.

كان عهد ثيودوسيوس مرحلة مهمة في تطور العلاقات بين الإمبراطور ورجال الدين، فقد وقع ثيودوسيوس في خطأ كبير، إذ انتقم من أهل مدينة سالونيك لثورتهم على حاكم المدينة وقادة الحرس وقتلهم، فجمع أهل المدينة في ميدان السباق بدعوة لحضور العروض، وأمر جنوده بغلق الأبواب، وقتل المواطنين، فقتلوا منهم نحو سبعة آلاف من أهل المدينة، وكانت النتيجة أن توقف أسقف ميلان (أمبروز) عن إقامة القداس في حضور الإمبراطور، إلا بعد تكفير الأخير عن الجرم الذي ارتكبه واطهار الندم، ووجد الإمبراطور نفسه في موقف يصعب تجاوزه، وعليه أن يخضع لأوامر الأسقف، حتى لا يمتد موقفه بين سائر الأسقفيات في جميع أرجاء الإمبراطورية، واضطر ثيودوسيوس في نهاية الأمر للوقوف موقف الذليل أمام الأسقف، فخلع الزي الإمبراطوري، ودخل إلى الكنيسة في ملابس بسيطة معرباً عن ندمه، فأقام الصلوات مقراً بذنبه، وظل يتوسل إلى الله أن يغفر له خطيئته، حتى عفا الأسقف عنه، وحققت الكنيسة نصراً كبيراً في أول صدام بين السلطة العلمانية والسلطة الدينية.

حاول ثيودوسيوس طوال عهده الحفاظ على وحدة الإمبراطورية وحماية حدودها، إلا أنه قبل وفاته قام بتقسيم الإمبراطورية بين ولديه، أركاديوس وهونوريوس، وكان أركاديوس في العقد الثاني من العمر، بينما لم يتجاوز هونوريوس السابعة من عمره، وبالطبع لا يستطيع أحدهما القيام بمهام الإمبراطور منفرداً، ووضع ثيودوسيوس ابنه أركاديوس حاكماً على الشرق، لأنه وجد أن الشرق بأمكانياته المادية والبشرية أكثر أهمية من الغرب، وظن أن أركاديوس الأكبر سناً، سيكون مؤهلاً للحفاظ على الجانب الشرقي وحمايته من الأخطار التي تتهدده من جانب الفرس، وعين ثيودوسيوس لكل من الطفلين وصي، يقوم بإدارة أمور الدولة إلى أن يصبحوا مؤهلين لتولي المهام منفردين، غير أن هذه الوصاية كانت بلاء على الإمبراطورين، إذ طمع الأوصياء في العرش، وظهرت المنافسة بينهما للسيطرة على كامل الإمبراطورية، حتى تحول الأمر إلى صراع، مما فتح الطريق أمام توغل العناصر الجرمانية في أراضي الإمبراطورية، حتى أنهم دخلوا القسطنطينية، ولكن أركاديوس نهض في الوقت المناسب، وحث الأهالي على مقاومة العناصر الجرمانية، والعمل على طردهم من جميع الأقاليم الشرقية، وبالفعل انتشرت فكرة المقاومة في الأقاليم الشرقية، ونجحت في طرد الجرمان من الجزء الشرقي، ماعداً العناصر القوطية التي التحقت بالخدمة في الجيش، بينما لم يتمكن الجانب الغربي من مقاومة العناصر الجرمانية، فاستسلم لوجودهم.

توفي أركاديوس عام 408م، وترك العرش لابنه **ثيودوسيوس الثاني** الذي لم يتجاوز الثامنة، وحكم حتى عام 450م، ووقع الإمبراطور الطفل تحت وصاية عمته بولكيرا، بينما أدار شئون الحكم قائد الحرس الإمبراطوري، وقد نجح الجيش في صد بعض المخاطر التي أحاطت بالإمبراطورية، خاصة تلك التي جاءت من الفرس، ودخلت الإمبراطورية الحرب مرتان مع الفرس في عهد ثيودوسيوس الثاني، وانهزم الفرس في المرتين، إلا أن الجيش لم يستطع التغلب على هجمات الهون، ووافق ثيودوسيوس على دفع مبلغ كبير أتاوة سنوية لأتتلا ملك الهون.

نشأ ثيودوسيوس الثاني على حب التعلم، فأخذ ينهل من منابع العلم بشتى أنواعها، ووقع اختيار بولكيرا على فتاة ابنة عالم وثني، كان يعمل بالقسطنطينية، لتكون زوجة لثيودوسيوس، ومنحتها الاسم البيزنطي إيدوكيا، فكانت زوجة على قدر كبير من العلم والثقافة، أعانت ثيودوسيوس على رغبته في تحصيل العلوم، وتحسين أحوال التعليم في الإمبراطورية، وشجعت على افتتاح جامعة القسطنطينية، وكان

قسطنطين قد أنشأها، ولكن توقف اتمام البناء بعد وفاته، وجلب لها أفضل المعلمين من كل أنحاء الإمبراطورية، ويبدو أن ثيودوسيوس الثاني قد تحمس لجامعة القسطنطينية بغرض جذب الطلاب إليها، ولتنافس جامعة أثينا الوثنية، فقد قرر أن تدرس القسطنطينية علوم متنوعة، ومنها الفلسفة التي أشتهرت بها جامعة أثينا، عليها تجد اقبال من الطلاب، وينصروا عن العلوم الوثنية.

وتفرغ ثيودوسيوس لدراسة القانون، والعبادة وطلب العلم، بينما اشرفت عمته بولكيرا، وزوجته إيدوكيا على الشؤون الإدارية، غير أن الخلاف وقع بين السيدتين، وأنتهى باختيار بولكيرا الابتعاد عن القصر الإمبراطوري، تاركة شؤون الإدارة لإيدوكيا، التي أدارت الأمور بشكل جيد، إلا أن خلافا وقع بينها وبين ثيودوسيوس، بسبب زيادة سلطتها، وتطلعها للسيطرة على جميع الشؤون الإدارية بالدولة، فقرر الإمبراطور عقابها بإرسالها إلى أحد أديرة بيت المقدس، حيث قضت ما بقي من عمرها في العبادة داخل الدير، ودعا ثيودوسيوس عمته بولكيرا للعودة للقصر الإمبراطوري.

لم يكن ثيودوسيوس إمبراطورا ماهرا، ولم يبد عناية كبيرة بشؤون الحكم، إلا أنه كان بارع في الشؤون القانونية، فعكف على دراسة القانون، وأعد لجنة من كبار رجال القانون في عصره، فأعاد بمعاونتهم صياغة جميع قوانين الإمبراطورية، وعدلها طبقا للتعاليم المسيحية، وجمع كل مراسيم الأباطرة المسيحيين، وبدأها بقوانين قسطنطين الأول، وصدرت مجموعة ثيودوسيوس القانونية عام 438م بما يوافق الديانة المسيحية.

وفي عهد ثيودوسيوس، زاد عدد سكان القسطنطينية بشكل كبير، حتى أن المدينة لم تعد تكفيهم، فبدأ الأهالي ببناء منازل عشوائية خارج أسوار القسطنطينية، فتدارك الإمبراطور هذه المشكلة، وقام بتوسيع مدينة القسطنطينية، وبنى سور جديد للمدينة، أدخل في حدودها جميع المناطق العشوائية، ثم أمر بإعادة تنظيم المنطقة بين السورين القديم والجديد، وتنظيم الشوارع وامتدادها بالمرافق، وأمر بزيادة استحكامات المدينة، حتى تتمكن من مواجهة خطر العناصر البربرية، غير أن ذلك السور لم يكتمل في عهد ثيودوسيوس الثاني، وتوقف العمل به لفترة بعد وفاته.

مات ثيودوسيوس دون وريث للعرش، فتولت بولكيرا مسألة اختيار إمبراطور جديد، ووقع اختيارها على **مارقيانوس** لأنه خبير بشؤون الإدارة، وكثيرا ما لجأت إليه لمساعدتها في الشؤون الإدارية، ليكون إمبراطور (450-457م)، ولكي يتخذ حكم مارقيان الصفة الشرعية، تزوج من بولكيرا التي كانت الوريثة الوحيدة للعرش، لم يكن مارقيان قائد عسكري ماهر، فلم يرق بأعمال حربية لصد الأخطار عن الإمبراطورية، إلا أنه اتخذ قرارات هامة، فقد قرر قطع الأتاوة التي تقرر على الإمبراطورية دفعها للهن، وغضب أثيلا زعيم الهون، وقرر التوجه لملاقاة الإمبراطور، إلا أن أثيلا مات، ونجت الإمبراطورية من هجماته، أما بالنسب للقوط، ومعاودتهم التقدم في أراضي الإمبراطورية، فقد وجد مارقيان أن يحاول تحسين سياسة الإمبراطورية تجاههم، حتى يتمكن من صد الأخطار الأخرى، ففاوضهم ليعودوا للسكن على حدود الإمبراطورية عند إيطاليا، على أن يصبحوا معاهدين، بشرط عدم التوغل في أراضي الإمبراطورية.

### **أسرة ليو: (457-518م):**

انتهت أسرة ثيودوسيوس بموت الإمبراطور مارقيان، ووقع الاختيار على أحد القادة العسكريين ليتولى أمر الإمبراطورية، فرفع **ليو الأول** للعرش (457-474م)، وكان عهد ليو بداية علاقة جديدة بين الإمبراطور وبطريك القسطنطينية، فقبل ليو كان يتم التتويج من قبل مجلس السناتو أولا، ثم يبارك

البطريك الإمبراطور المتوج، أما ليو، فقد قام البطريك بنفسه بوضع التاج على رأسه، في إشارة لنمو سلطة بطريركية القسطنطينية.

ازداد تدخل القادة القوط في شئون الإمبراطورية في عهد ليو الأول، ولم ينجب ليو ولد ذكر، فاختر حفيده لإبنته (ليو الثاني)، وعينه قيصر واشركه معه في الحكم، وبوفاة ليو الأول عام 474م، رفع ليو الثاني مباشرة للعرش، واختار ليو الثاني الذي يبدو أنه كان ضعيف البنية، معتل الصحة، أن يشرك والده معه في الحكم، وبذلك أصبح زينون امبراطورا مع ليو الثاني عام 474م، ولم تمض بضعة أشهر حتى توفي ليو الثاني وانفرد زينون بالعرش.

بدأ عهد زينون بداية صعبة، كان أول ما واجهه هو تمرد القوط، الذين زاد طموحهم السياسي بشكل كبير، وفي نفس الوقت قامت حركة تمرد داخل القصر الإمبراطوري، بقيادة بازيل، صهر الإمبراطور ليو، معترضا على تولي زينون الأيسوري عرش الإمبراطورية، فقد أثار تولي زينون لعرش الإمبراطورية غضب عدد من قادة الجيش، الذين رفضوا تزايد سلطة الأيسوريين، وكان زينون قد منح الأيسوريين المناصب العليا، سواء في الجيش، أو في الإدارة المدنية للدولة، ونمت سلطة الأيسوريين بشكل كبير، فكره البيزنطيون تولي الأجانب المناصب العليا، وتبنى بازل حركة مقاومة زيادة نفوذ الأجانب داخل الإمبراطورية، ونجح بازل بسرعة بمساعدة رئيس الحرس (كان رئيس الحرس من الأيسوريين)، وعدد من قادة الجيش، في الإستيلاء على القسطنطينية، ورفع بازل للعرش 475م، ولكن الشعب البيزنطي لم يقبله إمبراطورا لمدة طويلة، فقد كانت له معتقدات دينية لم يقبلها المسيحيون على اختلاف مذاهبهم، فلم يستمر حكم بازل سوى بضعة أشهر، وانفض المؤيدون من حوله، مما مكن زينون من العودة للقسطنطينية في نفس العام.

كانت قوة القوط وخطرهم زاد داخل القسطنطينية نفسها خلال أزمة اغتصاب العرش، فلما عاد زينون قرر العمل بسرعة على حماية الإمبراطورية من زيادة نفوذ القوط، ولكن منعه من ذلك حركة تمرد جديدة، كان هدفها كذلك التخلص من حكم الأيسوريين، وحاول المتآمرون تنويع إمبراطور جديد، إلا أن زينون استطاع التغلب على حركة التمرد، وتمكن من القبض على المتآمرين، وأمر بآعدامهم عام 488م.

في خلال الفترة التي قضاها زينون في ملاحقة المتمردين، لم ينتبه لما حل بروما والجانب الغربي من ضعف وانهايار سياسي واقتصادي، إلا عندما وجد الزعيم الجرمانى إدواكر يدخل بجيشه روما ويسقط آخر إباطرتها، ويستولى عليها عام 476م، وبعد فراغ زينون من القضاء على حركات التمرد التي واجهته في السنوات الأولى من حكمه، وجد أن يوجه جهوده للتخلص من القوط، الذين زاد عددهم بشكل كبير في الجيش، وأصبحت لهم كلمة مسموعة في تحريك الأمور، فخشي أن تلاقي القسطنطينية مصير روما، إلا أنه فوجيء بطلب ثيودريك زعيم القوط، أن يسمح لهم الإمبراطور بالتحرك خارج حدود القسم الشرقي، والاستيطان في إيطاليا، فاذن لهم زينون بالرحيل، وبالفعل شهد عصر زينون تكوين مملكة القوط في إيطاليا بقيادة ثيودريك، وتبع الفرنجة القوط في ذلك، فقد تقدموا بزعامة كلوفس نحو غالة (فرنسا) بموافقة الإمبراطور، وأقاموا دولتهم، وتخلصت الإمبراطورية من خطر العناصر الجرمانية، بل زيادة على ذلك، أصبحت دولتي القوط في إيطاليا والفرنجة في فرنسا، من الدول الموالية للإمبراطورية البيزنطية، وحرصت كل منهما أن تكون لها علاقات طيبة مع الإمبراطور البيزنطي الذي منحهم شرعية إقامة ممالك خاصة بهم، ومنح زعمائهم حق التتويج ملوك.

في ظل كل الظروف الصعبة التي مرت بها الإمبراطورية في السنوات الأولى من حكم زينون، بدأ خطر جديد يظهر لا يقل في شدته عن العناصر الجرمانية، وجاء هذه المرة من قبل عنصر البلغار، الذين بدأوا

يشددوا هجماتهم على أطراف الإمبراطورية، فقد كان وجود القوط بنظام الخدمة العسكرية كمحالفين على الحدود الإمبراطورية قد منع البلغار والسلاف وغيرهم من التوغل في الأراضي البيزنطية، وبعد رحيل القوط خلى الطريق أمام البلغار لأراضي الإمبراطورية البيزنطية، واستغل البلغار حالة الفوضى التي تعرضت لها الإمبراطورية بسبب تعدد الثورات على حكم بازل، وكذلك بسبب ظهور مذاهب دينية جديدة في المناطق الشرقية، والنزاع الطويل الذي دار بين أصحاب هذه المذاهب، فحاولوا التوغل داخل أراضي الإمبراطورية واقتطاع أجزاء منها، وربما يكون راودهم الطموح لإنشاء مملكة لهم مثلما فعل القوط والفرنجة.

### أنستاسيوس (491-518م)

لم يترك زينون وريثاً لعرش الإمبراطورية سوى زوجته (**ابنة ليو الأول ووالدة ليو الثاني**)، فرفعت القائد أنستاسيوس للعرش بزواجه منها، وبدأ أنستاسيوس عهده بتخفيض الضرائب، خاصة تلك التي كانت تجبى من أصحاب الحرف البسيطة، ووجه اهتماماً كبيراً للإصلاحات الاقتصادية، كما أنه قرر التخلص من سلطة العناصر الدخيلة على الإمبراطورية، فقام باعفاء جميع القادة العسكريين الأيسوريين من المناصب الكبرى في الجيش، كما قام باستبعاد كبار الموظفين الأيسوريين من الوظائف الهامة في جهاز الإدارة المدنية للدولة.

وفي عهد أنستاسيوس ازداد خطر البلغار والسلاف على الإمبراطورية، بالإضافة لخطر الفرس الذي بدأ يزداد بشكل كبير، إلا أن الدولتان البيزنطية والفارسية كان لديهما من المشاكل الداخلية والخارجية ما يحتم عليهما عقد هدنة، فقام الإمبراطور أنستاسيوس بعقد هدنة مع الملك الفارسي قباد في عام 506م، لمدة سبع سنوات، حتى يتفرغ أنستاسيوس لصده هجمات البلغار، ويتفرغ قباد لاختتام الثورات الداخلية.

تميز أنستاسيوس بالاجتهاد، والعمل الجاد على إصلاح أحوال الإمبراطورية، إلى جانب الإهتمام بتسوية الخلافات الدينية التي كادت تعصف بالإمبراطورية، لولا حكمة رجال الدين، وقد برع أنستاسيوس في تحسين الأحوال الاقتصادية، وعالج العملة بادرخال النقد النحاسي (الفلس)، لحين تجاوز الأزمة الاقتصادية، وتعامل أنستاسيوس مع الجهاز الإداري للإمبراطورية بحكمة وشدة في نفس الوقت، وأصلح النظام المالي والضريبي للدولة، حتى أنه عند وفاته ترك خزانة الإمبراطورية عامرة بالنقد.

وتميز كذلك حكم أنستاسيوس بالالتزام بتعاليم السيد المسيح، ولم يتهاون بشأن بعض العادات الوثنية المتأصلة في المجتمع البيزنطي، فقام بتحريم جميع مظاهر الاحتفالات الوثنية بالأعياد، ومن أهم القرارات التي اتخذها على المستوى الديني والاجتماعي، تحريم مباريات المصارعة التي كانت تقوم بين الجلادين، والتي كانت تنتهي بقتل أحد الجلادين للآخر، وكذلك المصارعة بين الجلادين والوحوش، والتي كانت تجد اقبالا كبيرا من المشاهدين في العصور الوثنية.

كما أتم أنستاسيوس اكمال الأسوار التي أمر بها ثيودوسيوس الثاني، ولم تكتمل في عصره، وبذلك زادت حصانة مدينة القسطنطينية، وزادت قدرتها على مواجهة خطر البلغار وغيرهم من العناصر المغيرة، وتميز عصر أنستاسيوس بأنه عصر الإصلاح في جميع المجالات، غير أن أمراً هاماً بدأ يظهر في عصره، وزيادة سلطة الأحزاب الرياضية داخل المجتمع البيزنطي، وكان أنستاسيوس قد عمل على تنمية وتشجيع المسابقات التي تقام في ميدان السباق، ومنها العجلات، ومن الجائز أنه قام بذلك حتى يجد الناس بديلاً عن الإهتمام بمباريات المصارعة بين البشر والوحوش، فكانت النتيجة أن زادت سلطة الأحزاب بشكل كبير، حتى شكلت خطراً على الإمبراطورية يظهر بوضوح خلال أسرة جستنيان، حتى أن هذا الخطر كاد يعصف بجستنيان نفسه.

وبنهاية أسرة ليو، ينتهي عصر التأسيس للإمبراطورية البيزنطية، الذي امتد من قسطنطين وحتى أنستاسيوس.